بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 10 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ:22\11\2022 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

الوقفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ وصار واضحاً لدينا أن الترتيب في هذه الآية المباركة لا يوجد حاجة فيه إلى الالتزام بالتقديم والتأخير، كما ذكر من النحاة ومقاتل من المفسرين، بل الآية منسجمة بما هي عليه.

فيبقى الكلام في المقصود من قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ واضح جداً أن الجعل هنا بمعنى الإنشاء والخلق والإبداع.

لكن ما هو المقصود من السميع البصير؟ لا يخفى أن هاتين الكلمتين صيغة مبالغة، فلا بد عندما نفسر بتفسير أن نلحظ هذه الصيغة في دلالتها على ذلك المعنى الذي نفسره.

كلمات علماء التفسير في هذه الآية مباركة مختلفة، فجماعة حملوا السميع البصير على الحاستين، أي السمع والبصر. وجماعة حملوهما على الأداتين، أي أداة السمع والبصر وهي الأذن والعين.

لكن كما هو واضح هذان التفسيران لا ينسجمان مع صيغة المبالغة، إذا كان المقصود الحاسة فكان الأولى أن يقول فجعلنا له سمعاً وبصراً. وإذا كان المقصود الأداة فكان الأنسب أن جعلنا له أذناً وعينين. فكيف نبرر صيغة المبالغة في المقام؟

جماعة ثالثة حملوا السميع على المطيع، من قولهم: سمعاً وطاعة. وحملوا البصير على العليم، وهما صيغة مبالغة من قولهم: فلان بصير بهذا الأمر، أي عليم به.

وجماعة رابعة جعلوا السميع البصير كناية عن الفهم.

إذاً لا نحمل السميع البصير على الأداتين والحاستين، بل هذا الاستعمال استعمال كنائي، يراد لازم ما يدل عليه اللفظ؛ باعتبار أن الأداتين بذاتهما أو بما يعبران عن حاسة السمع والبصر من أدوات الفهم، ومن الأدوات الأولية للمعرفة، فيصح هذا الاستعمال الكنائي.

بعد الالتفات إلى المعنى المجموع للآية الشريفة وإلى ما يأتي في الآية الثالثة من قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ فهذا المجموع التركيبي يعين لنا المراد، فالباري تبارك وتعالى في مطلع هذه السورة بيّن أن هذا الإنسان مرّ عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً وكان مغفولاً عنه، وهذا المطلع للتنبيه والتركيز على ما يأتي بعده من نِعمْ، فكانت النعمة الأولى أننا خلقناه، وخلقنا إياه لم يكن عن عبث ولم يكن فلتة، وإنما خلقنا إياه لغاية مهمة وهيه الاختبار، وهذا الاختبار ليس لحاجة ولنقص في معرفة الخالق تبارك وتعالى، وإنما لأنه يريد أن يحقق نتيجة هذا الاختبار في صفحة الوجود؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[1] لم يكن الأمر لمصلحة تعود إليه.

ولكن هذه الغاية بحاجة إلى أدوات ووسائل كي تتحقق، وهذا الاختبار ليقطعه الإنسان مختاراً بحاجة إلى وسائل، فكانت الوسائل التي يحتاج إليها في الاختبار منه ما هو ذاتي مخلوق معه، وهو السمع والبصر، فالأذن والعين ليست لها بذاتها خصوصية، خصوصيتها بما توصل إلى نتيجة في عملية الاختبار، فخلقنا له وأنشأنا معه تلك الوسائل الغرض الأساسي منها الإدراك والفهم، والأذن والعين إنما هي وسيلة للوصول إلى الإدراك والفهم. ولأجل ذلك قد يكون الإنسان من ناحية الأدوات الظاهرية كامل، فله أذن لكن لا يسمع، وله عين ولا يبصر. فهذه لوحدها لا تكفي في العبور في طريق الامتحان والاختبار.

فإذاً المدار الرئيس أن الله سبحانه وتعالى أعطى هذا المخلوق الذي أنشأه من نطفة أمشاج طريقة لا أنه يحصل له لإدراك مرة واحدة، كثير الإدراك، وكثير الإدراك وهو الذي يفكر بشكل دائم، فالإنسان حقيقته أنه مفكر. فهذا يتناسب مع استعمال صيغة المبالغة. بخلاف ما لو ركزنا على الأذن والعين، فلا نستطيع أن نبرر التعبير بصيغة المبالغة.

---

[1] الأنفال 42

نتيجة البحث في هذه الآية: أن الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، بعد أن كان مهملاً ومغفولاً، عندما كان طيناً وتراباً أخرجه الله من حالة عدم الذكر والغفلة إلى حيز الوجود، فخلقه وأبدعه وأنشأه وأعطاه الوسائل التي من خلالها يستطيع أن ينجح في امتحانه واختباره.

الآية الثالثة: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾

هنا الأمر في البحث السياقي في هذه الآية في غاية السهولة، بعد أن كانت الغاية من خلقه نبتليه، فأعطيناه وسائل الإدراك فكان مدركاً وفاهماً، مع ذلك لم نكتف بذلك، بل هديناه السبيل.

بعض علماء التفسير، ونسب ذلك إلى السُّديّ، إسماعيل بن عبدالرحمن السُّديّ[2]، أنه جعل هذه الآية ما زالت في سياق الخلق، فالآية السابقة تكلمت عن النطفة المختلطة، وهذه النطفة المختلطة لا بد أن تتطور في الرحم إلى أن تصبح جنيناً، وهذا الجنين ما دام في رحم أمه وبطنها لا يصدق عليه في العرف أنه إنسان إلى أن يخرج إلى هذه الدنيا. فكأن الله سبحانه وتعالى بصدد ذكر هذه النعم المرتبطة بالخلق، فخلقناه من نطفة أمشاج وكوّنا له الأدوات التي يحتاج إليها وهو في بطن أمه، ونحن من هداه إلى كيفية الخروج من الرحم.

إذاً ما زال الكلام باعتقاده في سلسلة عملية الخلق والتكوين ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ﴾ أي هديناه للخروج من الرحم حتى يصبح إنساناً في هذه الدنيا.

لكن في الواقع هذا التفسير مضافاً إلى عدم دليل عليه من سياق أو رواية أو قرينة أو ما شابه ذلك، فهو مخالف لظهور الترتيب في هذه الآيات، صحيح أن الباري تبارك وتعالى ركز في هذه الآيات على نعمه، بل وأبرز هذه النعم بعد الغفلة، بعد أن لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً.

فالإنسان دائماً يعيش في حالة النعم، لكن لا يلتفت إلى النعمة بشكل دائم. فهنا عندما قيل بأنك حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً ثم جاء الخلق، هذه النعمة تبرز بشكل أوضح مما لو ابتدأ الآية بقوله

---

[2] توفي سنة مائة وسبعة وعشرين للهجرة، وهو من التابعين ومن أئمة التفسير المعروفين، وفي بعض التراجم رمي بالتشيع، ولا ينبغي أن نخلط وبينه حفيد له أيضاً يعرف بالسُّديّ، وذاك عند العامة وصفوه بشكل صريح بأنه متروك ولم يأخذوا عنه، وإذا رجعنا إلى سيرته نعرف سبب هذا الترك، فإن الواسطة بين السُّديّ الصغير وبين ابن عباس هو الكلبي السائبي الذي هو من أوائل أئمة التفسير عند الشيعة، وهو باعتقادي من الذين وضعوا علم البيان، والتفسير المعتبر عن ابن عباس نقله هذا. فالسُّديّ الصغير تتلمذ عند الكلبي، فبطبيعة الحال أن هذا الرجل يكون متروكاً عند القوم.

إنا خلقنا الإنسان، يل بيّن قبل هذه العملية لم تكن شيئاً مذكوراً، فتأتي هذه النعمة بشكل أوضح يثبت في الذهن.

فالآيات في ذكر النعم، فكانت النعمة الأولى نعمة الخلق والإبراز من كتم الغفلة وعدم الذكر إلى نور الإنشاء والخلق والوجود ثم أوجده متكاملاً بأدوات المعرفة، ولم يكتف الباري تبارك وتعالى بذلك، بل أعطاه الهداية بطريقين:

الطريق الأول: الهداية الفطرية، الهداية التي يفطر عليها الإنسان. هذه الحقيقة الإنسانية التي تقتضي الارتباط بالغير، التي دائماً تعبر عنها الآية الشريفة: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ﴾[3] في طينتك وكينونتك وجبلتك أنت مرتبط بالغير، وهذا نوع من الهداية.

الطريق الثاني: هداية خارجة عن كينونته، وهي ببعث الرسل والأدلاء على الطريق.

فحينئذ تكتمل عنده هذه الهداية، عندما تكتمل عنده هذه الهداية فتكتمل النعمة ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ لتأتي الآيات بعد ذلك تذكر نماذج من الشكر ونماذج من الكفر.

بهذا تكون السورة كلها متناسقة.

هذا المعنى سوف يفوت فيما لو كان المراد إنا هديناه السبيل، أي هدينا هذا الجنين إلى كيفية من الرحم، لا يكون واضحاً أن يترتب عليه هذا التقسيم والتنويع، إما شاكر وإما كفور. بخلاف هذا المعنى الذي هو يأتي إلى الذهن ابتداءً.

[3] فاطر 35